العصر الذهبي لمدينة مراكش

المجالس الشورية ـ المدارس العلمية ـ المستشفيات الطبية

للعلامة المؤرخ فضيلة القاضي سيدي عبد الحفيظ الفاسي

لما عزم الاستاذ الكاتب الاجتماعي الشهير صاحب «مجلة المغرب» على اصدار عدد خاص من المجلة حول مدينة مراكش وتاريخها احتفالا بمرور تسعة قرون على تاسيسها طلب مني مع غيري ان نشاركه بكتابة في الموضوع ونحن اذا قمنا بذلك رغماً عن القائنا القلم الصحافي منذ مدة فلان الواجب العلمي يقضي علينا بذلك ولانه مشروع جليل مفيد حيث ان مدينة مراكش جديرة بهذه الذكرى فهي ذات مجد عريق وتاريخ ذهبي حافل وغني بالحوادث الجليلة وملوكها الذين اتخذوها كرسياً لمملكتهم كانوا من اعظم ملوك المغرب قدراً واسماهم فخراً وابعدهم شهرة وذكرا حتى أن الدولة المغربية كلها صارت تسمى باسمها، وذلك ان الدول الاوربية ما عرفت الدولة المغربية الا عند ما اجتاز امير المؤمنين يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش الى الاندلس فاتحاً ومنقذاً فلما قاتل الاسبان وانتصر على الفونس السادس ملك قشتالة في واقعة الزلاقة ذلك الانتصار العظيم المعروف في التاريخ وصارت الجيوش تبعث من مراكش والاوامر تصدر منها والسفراء ترد عليها صار يطلق على الدولة المغربية اسم الدولة المراكشية.

وقد كادت شهرة مدينة مراكش تقضي على شهرة مدينة فاس ومجدها بسبب تحول كرسي المملكة اليها زمن الدولتين المتونية والموحدية، لولا انها استعادت مكانتها عند قيام الدولة المرينية العظيمة التي ردت اليها كرسي المملكة فتجددت حضارتها واستبحر عمرانها وتكاثرت مدارسها ومستشفياتها وترقت معارفها وتنوعت علومها وظهرت مواهب عقول اهلها من علمائها وادبائها وصناعها.

واني ارى الواجب لا يقضي على كتاب المغرب وادبائه بمساعدة صاحب المجلة في مشروعه فحسب، بل يقضي عليهم باظهار ما لديهم من الذخائر النفيسة حول هذه المدينة أو مالهم انفسهم من المؤلفات والابحاث القيمة فيما يرجع الى تاريخها كما فعل قاضيها صديقنا العلامة البحاثة أبو الفضل السيد عباس بن ابراهيم الشهير فقد شرع الآن في طبع تاريخه العجيب المسمى بالاعلام بمن حل اغمات ومراكش من الاعلام.

أما نحن فسنكتفي في هذا المقال بالكلام على ثلاث مسائل نعدها من أعظم مفاخر تاريخ هذه المدينة. نعم سنتكلم على تأسيس المجالس الشورية والمدارس العلمية والمستشفيات الطبية انما كان أولا بمدينة مراكش أو على يد ملوك مراكش زمن الدولتين المشار اليهما آنفا وسنعرض هذا الموضوع الذي اشرنا اليه بصورة مختصرة بسيطة بعيدة عن التخيلات الشعرية التي لا تظهر معها الحقيقة في الكتابة العلمية النثرية، وما دمنا قد رسمنا لانفسنا هذه الخطة فلنتحول عنها الى المقصود فنقول:

١) أول مجلس شوري الف في المغرب كان بمدينة مراكش ومنها عم سائر المغرب، ولست أعني أن مجلس الشورى كان مثل ما يسمى اليوم في الممالك الدستورية بمجلس النواب، بل نعني أن قضاة الدولة المتونية الذين كانت تسند اليهم كافة الاحكام كان يشترط عليهم الا يصدروا حكما الا بعد مشورة الفقهاء المعينين معهم للشورى بحيث ان القضاة انما كانوا منفذين لما يقرره اولئك الأئمة وكانوا عادة اربعة، ولم يكن الامر مقتصراً على القضاة بل كان السلطان نفسه لا يفعل امراً الا بعد مشورة الفقهاء وموافقتهم وكان بالطبع أن اولئك القضاة

أو أعضاء مجلس الشورى كانوا من المتضلعين في العلوم الشرعية ليمكن لهم ان يحكموا بين الامة ويشيروا على الحكومة في كافة ما يعرض لها من امور الدين والدنيا ضرورة أن الشريعة الاسلامية جاءت كفيلة بما فيه صالح البشر وسعادتهم وغنية بتعاليمها وأصول تشريعها عن القوانين والشرائع الوضعية ، ويكفي في معرفة فقهاء الدولة اللمتونية الذين كان يولى منهم القضاة واعضاء مجلس الشورى أن كان منهم الائمة أبو الوليد ابن رشد وأبو بكر بن العربي وأبو الفضل عياض وامثالهم وكفى بمن ذكر فخرا .

٢ً) أول مدرسة داخلية أسست في المغرب كانت على يد يوسف بن تاشفين وانما قلنا داخلية ليلا تشمل الاولية جامع القرويين بفاس فقد كان منذ أسس والعلوم الاسلامية تدرس فيه ضرورة أن المساجد في الصدر الاول كانت معدة للعبادة والقاء الدروس الاسلامية بل ونوادي للتداول في الماجريات السياسية ، لكننا لا ندعي أن مسجد القرويين كان قبل ذلك كلية أو جامعة علمية تلقى فيها كافة العلوم حتى الفلسفية اذ لم نقف على ما يفيد ذلك أو يستانس به بل ان العلوم الفلسفية وحتى الكلامية لم تكن معروفة بالمغرب قبل الدولة الموحدية ، ولم يعرفنا التاريخ أين كان سكنى طلبة القرويين قبل أن يؤسس يوسف بن تاشفين مدرسته التي نحن بصدد الكلام عليها وهي مدرسة الصابرين بفاس التي لم يبق منها الى اليوم الا اطلالها وموضعها بباب الجيزيين المعروفة اليوم بالباب الحمراء في مجاورة روضة الانوار المعروفة بروضة أبي مدين وتقابل بانحراف من جهة اليمين مقبرة موسى بن أبي العافية ، ذكر هذه المدرسة أبو محمد عبد السلام بن الخياط القادري في تاريخه وفي تحفته وأشار اليها أبو عبد الله ابن جعفر الكتاني في سلوته .

٣ً) أول مستشفى نظامي اسس بالمغرب كان بمدينة مراكش زمن الدولة الموحدية وقد كانت مستشفياتها من أعظم مصانعها التي تفخر بها فاننا اذا قابلنا ما ذكره مؤرخوها كصاحب المعجب في وصف مستشفياتها مع ما ذكره مؤرخو ذلك التاريخ في وصف مستسفيات الدول المعاصرة لها نجد مستشفى مراكش قد فاق غيره من مستشفيات بغداد وغيرها من العواصم الاسلامية لما كان عليه من الزخرفة والاتقان وما كان يلقاه المريض من الاعتناء وما يجد من أسباب الراحة وما كان فيها من توفر الادوية وتعدد الصيادلة والكيماويين البارعين والاطباء الماهرين ناهيك باطباء الاندلس وفلاسفتها الذين كانوا زينة الدولة الموحدية وجواهر تيجانها بل كان يوسف بن عبد المومن وولده يعقوب المنصور من أعظم فلاسفة عصرهما ولهما نظريات فلسفية غريبة كما يوخذ من كتاب فلاسفة الاسلام .

هذا ما عنّ لنا كتبه في المواضيع التي اخترناها ملخصاً ذلك من كتابي في فلسفة تاريخ دول المغرب ، ولنترك المجال لغيرنا والله الموفق الهادي .

عبد الحفيظ الفاسي

رئيس الحماية الجديد

عينت الجمهورية الفرنسية الفخيمة جناب ولي المستعمرات العام م. مرسيل بيروتون نائب فرنسا بالقطر التونسي الشقيق مقيما عاماً بالمغرب بدلا من جناب المقيم العام م. هنري بونصو الذي عين سفيراً بتركيا ، «فمجلة المغرب» تدعو لفخامة المقيم السابق بالخير والعافية في وظيفه الجديد وتحفظ لعقيلته المحسنة ، العاملة ، الذكر الدائم ، وترحب بفخامة المقيم م. بيروتون ترحيباً جما .

ويستفاد من خطاب ألقاه فخامة المقيم العام أخيراً أن جنابه أوعز للمصالح الادارية بدرس مسألة الترتيب بقصد ابطاله والاستعاضة عنه باداءات اخرى ، كما أن جنابه ينوي تكوين ملك للفلاح لا يمكن تفويته مع ما يلزم من ماشية للحرث وايضاً الادوات الفلاحية وقوت الفلاح واسرته ، وقد تقبل المغرب خبر هذين الاصلاحين بغاية الارتياح شاكراً لفخامة المقيم عنايته وحزمه .